الفصل الخامس عشر

المطابقة والمقابلة

المطابقة بين اللغة والمصطلح

أورد ابن المعتز فى كتابه البديع دلالة المطابقة عند الخليل والأصمعى فقال : قال الخليل رحمه الله :" يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حَذْوٍواحد ، وكذلك قال أبوسعيد" (١٠٨).

فهى بمعنى إصابة الكلام الغَرَض المَسُوقَ له ، ثم أورد ابن المعتز شواهد عديدة من الكتاب والسنة والشعر والنثر مُرِيدًا بها الجمع بين الشىء وما يقابله فى الكلام، منها ما يُعَدُّ فى طِبَاق الايجاب وما يُعَدُّ فى طباق السَّلْب .

وعندنا أن الجاحظ سبق ابن المعتز إلى كل هذا ، وسماه التطبيق ، فمنه بمعنى إصابة الكلام الغرض المسوق له ، قوله : وقال فى التطبيق (١٠٩):

فَلَمَّا أَنْ بَدَا القَعْقَاعُ لَجَّتْ عَلَى شَرَكٍ تُنَازِلُهُ نِقَالا
تَعَاوَرْنَ الحَدِيثَ وَطَبَّقَتْهُ كَمَا طَبَّقْتَ بالنَّعْلِ المِثَالا (١١٠)

قال لقمان لابنه :(أى بنى ، إنى قد نَدِمْتُ على الكلام ، ولم أَنْدَم على السكوت .) وقال الشاعر :

ما إنْ نَدِمْتُ على سُكُوتِى مَرَّةً ولقد نَدِمْتُ على الكَلَامِ مِرَارَا .

فالجاحظ عرف المطابقة على المعنى الذى عرفها به الخليل بن أحمد والأصمعى وأضاف إليه المعنى الاصطلاحى الذى سبق ابنَ المعتزإليه ، وسماها التطبيق وكل الذى أضافه ابن المعتز أنه سماها المطابقة .

أما ابن حِجَّة الحموى فقد استوعب الدراسات السابقة عليه وعرضها عرضا وافيا مؤيِّدًا بالشواهد ، وقال : " المطابقة يقال لها التطبيق والطِّباق . والمُطَابَقَةُ فى اللغة أن يَضَعَ البعيرُ رِجْلَه فى موضِعِ يَدِه . فإذا فعل ذلك قيل طابق البعير . وقال الأصمعى : المطابقة أَصْلُها وَضْعُ الرِّجْلِ موضع اليد فى مَشْىِ ذواتِ الأربع . وقال الخليل بن أحمد : يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حَذْوٍ واحد (١١١).

وقال : " وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة ، لأن المطابقة فى الأصل بين الضدين فى الكلام كالإيراد والإصدار ، والليل والنهار ، والبياض والسواد "

وعندنا أن المناسبة لم يدركها ابن حجة فحركة ذوات الأربع تتم بتحريك اليد اليمنى مع الرجل اليسرى وتشتمل على مطابقة ثم بتحريك اليد اليسرى مع الرِّجل اليمنى وهذه مطابقة أخرى . وتضع فى الحركة الثانية قائمتيها فى الموضعين اللذين أخلتهما من الحركة الأولى وهذا شرح لقول الخليل : يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذوواحد .

قال ابن حجة : وقد تقرر أن المطابقة الجمع بين الضدين عند غالب الناس سواء كانت من اسمين أومن فعلين أومن غير ذلك . وقال الأخفش ، وقد سئل عنهما : أجد قوما يختلفون فيها فطائفة وهم الأكثر - أنها الشيء وضده ، وطائفة يزعمون أنها اشتراك المعنيين فى لفظ واحد ، منهم قدامة بن جعفر الكاتب (١١٢).

وأوردوا فى ذلك قول زياد الأعجم

وَنُبِّئْتُهُمْ يَسْتَنْصِرُونَ بِكَاهِلٍ وَللوَّم فيهم كَاهِلٌ وَسَنَامُ

فكاهل الأول : اسم رجل ، والثانى : العضوالمعروف . فاللفظ واحد والمعنيان مختلفان . وهذا هوالجناس التام بعينه .

وقال الأخفش : من قال إن المطابقة اشتراك المعنيين فى لفظ واحد فقد خالف الخليل والأصمعى . فقيل أَوَكَانَا يَعْرِفَان ذلك ؟ فقال سبحان الله ! مَنْ أَعْلَمُ مِنْهُما بِطَيِّبِهِ وخَبِيثِه ، وما أحسن ما أتى الأخفش فى الجواب بالمطابقة .

مقايسة بين الطباق والتكافؤ

وقد شفى زكى الدين بن أبى الإصبع صاحب (تحرير التحبير) القلوب فيما قرره فإنه قال : المُطابقة ضَرْبان : ضَرْبٌ يأتى بألفاظ الحقيقة وضرب يأتى

بألفاظ المجاز ، فما كان بلفظ الحقيقة سُمِّيَ طِبَاقًا ، وما كان بلفظ المجاز سُمِّيَ تَكَافُؤًا.

فمثال التكافؤ وهومن إنشادات قدامة (١١٣).

حُلْوُالشَّمَائِلِ وَهُوَمُرٌّ بَاسِلُ (١١٤) يَحْمِي الذِّمَارَ صَبِيحَةَ الإِرْهَاقِ

فقوله حُلْوُوَمُرٌّ يجرى مجرى الاستعارة إذ ليس فى الإنسان ولا فى شمائله ما يُذَاق بحاسة الذَّوْق . ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رشيق :

وَقَدْ أَطْفَئُوا شَمْسَ النَّهَارِ وَأَوْقَدُوا نُجُومَ العَوَالِى فى سَمَاءِ عَجَاجِ

وقول الشاعر :

إذا نَحْنُ سِرْنَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ تَحَرَّكَ يَقْظَانُ التُّرَابِ وَنَائِمُه

فالمطابقة بين اليقظان والنائم ، ونسبتها إلى التراب على سبيل المجاز ، وهذا هوالتكافؤ عند ابن أبى الإصبع.

وأما المطابقة الحقيقية التى لم تأت بغير ألفاظ الحقيقة فأعظم الشواهد عليها قوله تعالى : (وأنه هوأضحك وأبكى وأنه هوأمات وأحيا .) النجم ٤٣

وقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار (والله إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع .)

وقوله تعالى : (وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات .) فاطر ٢١ . ومنها قوله صلى الله عليه وسلم : (فَلْيَأْخُذِ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ وَمِنْ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ ، ومن الشَّبِيبَةِ لِلكِبَرِ ، وَمِنَ الحَيَاةِ لِلمَمَاتِ ، فوالذى نفسى بيده ما بَعْدَ الحياة من مُسْتَعْتَبٍ ولا بعد الدنيا مِنْ دار إلا الجنة أوالنار .)

ومنها قول الشاعر :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِد لِنَفْسِى حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَا

ولابن الدُّمَيْنَة :

لَئِنْ سَاءَنِى أَنْ نِلْتَنِى بِمَسَاءَةٍ لقد سَرَّنِى أَنِّى خَطَرْتُ بِبَالِك

*طباق السلب بعد الايجاب:

قال ابن حجة: ولهم مطابقة السلب بعد الايجاب : وهى المطابقة التى لم يُصَرَّح فيها باظهار الضدين كقوله تعالى : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)الزمر٩ فالمطابقة حاصلة بين إيجاب العلم ونفية لأنهما ضدان ، ومثله قوله البحترى :

يُقَيِّضُ لى مِنْ حَيْثُ لا أعلم الهَوَى ويَسْرِى إلَىَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ (١١٥)

فالمطابقة باطنة ومعناها ظاهر فإن قوله (لاأعلم)كقوله(جاهل).

والسابق إلى هذا امرؤ القيس بقوله :

جَزَعْتُ ولم أَجْزَعِ مِنَ البَيْنِ مَجْزَعَا وعَزَّيْتُ قَلْبًا بالكَوَاعِبِ مُولَعَا

فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الجَزَع ونفيه . ومن المستحسن فى ذلك قول بعضهم :

خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا لِمَكْرُمَةٍ فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا وَمَا خُلِقُوا

رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا سَمَاحَ يَدٍ فَكَأَنَّهُمْ رُزِقُوا وَمَا رُزِقُوا

ومثله قول بشر بن هارون – وقد ظهر منه الفرح عند الموت ، فقيل له : أتفرح بالموت ؟ فقال:" ليس قُدُومِى على خَالِقٍ أرجوه كَمُقَامِى عند مخلوق لا أَرْجُوه" فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الرجاء ونفيه .

إيهام المطابقة

ولهم إيهام المطابقة والشاهد على إيهام المطابقة قول الشاعر :

يُبْدِى وِشَاحًا أبيضا مِنْ سَيْبِهِ والجَوْفُ لَيْسَ الوِشَاحَ الأَغْبَرَا(١١٦)

فإن الأغبر ليس بضد الأبيض وإنما يوهم بلفظه أنه ضده . ومثله قول دعبل:

لاتَعْجَبِى يَاسَلْمُ مِنْ رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

فالضحك هنا من جهة المعنى ليس بضد البكاء لأنه كناية عن كثرة الشيب ، ولكنه من جهة اللفظ يُوهِمُ بالمطابقة .

الملحق بالطباق

قال ابن حجة : ولهم المُلحق بالطباق وهوراجع إلى الضدين كقوله تعالى : (أشداء على الكفار رُحَماءُ بينَهم) الفتح ٢٦ طابق الأشداء بالرحماء لأن الرحمة فيها معنى اللين . ومثله قوله تعالى : (مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا) نوح٢٥ . فالمطابقة بين الغَرَق ودخول النار فإنَّ مَنْ دَخَل النار احترق ، والاحتراق ضد الغرق .

ومنه قول الحماسى :

لَهُم جُلُّ مَالِى إنْ تَتَابَعَ لى غِنَىً وإنْ قَلَّ مَالِى لا أُكَلِّفُهُم رِفْدَا

ففى قوله تتابع لى غنى معنى الكثرة .

وأما قول أبى الطيب :

لِمَنْ تَطْلُبِ الدُّنْيَا اذا لم تُرِدْ بِهَا سُرُورَ مُحِبٍّ أوإِسَاءَةَ مُجْرِمِ

فمتفق عليه أنه مِنَ الطِّبَاقِ الفاسِد فإن المُجْرِمَ ليس بِضِدٍّ للمُحِبِّ بوجهٍ ما . وليس للمحب ضد غير المُبْغض .

طباق الترديد

وهوأن ترد آخر الكلام المطابق على أوله فإن لم يكن الكلام مطابقا فهومن رد الأعجاز على الصدور : ومنه قول الأعشى :

لايَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَوْا وإنْ جَهِدُوا طُولَ الحَيَاةِ ولا يُوهُونَ ما رَفَعُوا

وجُلُّ القَصْدِ فى هذا الباب المطابقة فى الحقيقة التى قررها ابن أبى الإصبع .

قال ابن حجة : والذى أقوله إن المطابقة التى يأتى بها النـاظِمُ مُجَرَّدَةً ليس تحتها كبيرُ أَمْرٍ . ونهاية ذلك أنْ يُطَابِقَ الضِّدَّ بالضِّدِّ ، وهوشىءٌ سهلٌ . اللهم إلا أن تَتَرَشَّحَ بنوعٍ من أنواع البديع تُشَارِكُه فى البهجة والرونق ، كقوله تعالى :(تُولِجُ اللَّيلَ فى النهارِ وتُولِجُ النهارَ فى الليلِ وتُخرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ

الحى وترزق من تشاء بغير حساب) آل عمران ٢٧ . ففى العطف بقوله تعالى: (وترزق من تشاء بغير حساب) دلالة على أن من قدرعلى تلك الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده .وهذه مبالغة التكميل(١١٧) المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى ، فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا فقد اجتمع فيه المطابقة والعكس الذى لا يدرك لوجازته وبلاغته ، ومبالغة التكميل التى لا تليق بغير قدرته ومثل ذلك قول امرئ القيس :

مكرٌ مِفرٌ مُقبلٍ مُدبرٍ مَعًا كَجلمودِ صخرٍ حَطَّهُ السَّيلُ مِنْ عَلِ

فالمطابقة فى الاقبال والادبار ، ولكنه لما قال معا زاده تكميلا فى غاية الكمال فإن المراد بها قرب الحركة فى حالتى الاقبال والادبار وحالتى الكر والفر فلوترك المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة ولا هذا الموقع.

ثم إنه استطرد بعد تمام المطابقة وكمال التكميل إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعى ، ولم يكن قد ضُرِبَ لأنواع البديع فى بيوت العرب وَتَدٌ ولا امتد له سَبَبٌ وقد اشتمل بيت امرئ القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد(١١٨)

والصاحب بن عباد قد كسا المطابقة ديباجة التورية فى رثائه الوزير كثير بن أحمد حيث قال :

يَقُولُونَ قَدْ أَوْدَى كَثِيرُ بْنُ أَحْمَدٍ وذلكَ رُزْءٌ فى الأَنَامِ جَلِيلُ
فَقُلْتُ دَعُونِى والعُلَا نَبْكِهِ مَعًا فَمِثْلٌ كَثِيرٍ فى الأَنَامِ قَلِيلُ

وأبوتمام كساها ديباجة المجانسة بقوله :

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاسُودُ الصَّحَائِفِ فى مُتُونِهِنَّ جَلاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

المقابلة

أدخل جماعة من البلاغيين المقابلة فى المطابقة ، وهوغير صحيح فإن المقابلة أعم من المطابقة . وهى التنظير بين شيئين فأكثر ، وبين ما يخالف وما يوافق .

فبقولنا يوافق صارت المقابلة أعم من المطابقة فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة وهذا مذهب زكى الدين بن أبى الإصبع فإنه قال: صحة المقابلات عبارة عن تَوَخِّى المتكلم بين الكلام على ما ينبغى فإذا أتى بأشياء فى صدر كلامه أتى بأضْدَادِهَا فى عَجُزِهِ على الترتيب بحيث يقابل الأول بالأول والثانى بالثانى لا يخرم من ذلك شيئا فى المُخَالِفِ والمُوَافِقِ . ومتى أَخَلَّ بالترتيب كانت المقابلة فاسدة . وقد تكون المقابلة بغير الأضداد .قال تعالى : (فأَمَّا مَنْ طَغَى وآثَرَ الحياةَ الدنيا فإن الجَحِيمَ هى المأوى. وأما مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونَهَى النفسَ عن الهَوَى فإنَّ الجَنَّةَ هى المأوى)عبس٣٧-٤١.

والفرق بين المطابقة والمقابلة من وجهين:

أحدهما : أن المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضِدَّيْن ، والمقابلة تكون غالبا بالجمع بين أَرْبَعَةِ أضداد :ضِدَّان فى صدر الكلام وضِدَّان فى عَجُزِه ، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد . خمسة فى الصدر وخمسة فى العَجُزِ.

والثانى : أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد ، والمقابلة بالأضدادِ وغيرِ الأضداد ولكن بالأضداد أعلى رُتْبَةً وأعظم مَوْقِعًا . ومِنْ مُعْجِزَاتِ هذا الباب قوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليلَ والنهارَ لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) القصص٧٣. انظر إلى مجىء النهار والليل فى صدر الكلام وهما ضدان ، ثم قابلهما فى عجز الكلام بضدين وهما السكون والحركة على الترتيب ، ثم عبر عن الحركة بلفظ الإرداف (١٢٠) فالتزم الكلام ضربا من المحاسن زائدا على المقابلة فإنه عدل عن لفظ الحركة إلى لفظ (ابتغاء الفضل) لكون الحركة تكون لمصلحة ومَفْسَدَةٍ . وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة .

والآية الشريفة سيقت للاعتداد بالنِّعَمِ فوَجَبَ العُدُول عن لفظ الحركة إلى لفظ هورِدْفُه ليَتِمَّ حُسْنُ البيان.

ومن أمثلة **صِحَّة المقابلة** فى السنة الشريفة قول النبى صلى الله عليه وسلم :(ما كانَ الرِّفْقُ فى شَيْءٍ إلا زَانَه ، ولا كان الخُرْقُ فى شَيْءٍ إلا شَانَه) فانظر كيف قابل الرِّفْقَ بالخُرْقِ والزَّيْنَ بالشَّيْنِ بأحسن ترتيب وأتم مناسبة .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم :(إنَّ للَّهِ عِبَادًا جعلهم مَفَاتِيحَ الخير مَغَالِيقَ الشر.)

ومنه وهوظريف فى مقابلة اثنين باثنين أن المنصور قال لمحمد بن عمران : إنك لبخيل . فقال : يا أمير المؤمنين لا أَجُمْدُ فى حَقٍّ ولا أَنُوبُ فى بَاطِلٍ .

ومنه فى النظم قول النابغة :

فَتَىً كانَ فيه مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أن فيه ما يَسُوءُ الأَعَادِيا

وأما مقابلة ثلاثة بثلاثة فقيل إن المنصور سأل أبا دُلَامَة الشاعر عن أشعر بيت فى المقابلة فأنشده:

ما أَحْسَنَ الدِّينِ والدُّنْيَا إذا اجْتَمَعَا وأَقْبَحَ الكُفْرَ والإفلاسَ بالرَّجُلِ

فالشاعر قابل بين أحسن وأقبح ، وبين الدين والكفر ، والدنيا والإفلاس .

ومن مقابلة أربعة بأربعة قوله تعالى :(فأما من أَعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى فسنيسره لليُسْرَى . وأما مَنْ بَخِل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعُسْرى.) المقابلة بين قوله(استغنى) وقوله (اتقى) لأن معناه زهد فيما عنده واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة

وذلك يتضمن عدم التقوى . وهى ظاهرة بين (أعطى) و(بخل) وبين (صدق) و(كذب) وبين (اليسرى) و(العسرى) .

ومن مقابلة أربعة بأربعة قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى وصيته عند الموت :(هذا ما أوصى به أبوبكر عند آخر عهده بالدنيا خارجا منها وأول عهده بالآخرة داخلا فيها) فقابل أولا بآخر ، والدنيا بالآخره ، وخارجا بداخل ،

ومنها بفيها . فانظر إلى ضيق هذا المقام كيف صدر عنه مثل هذا الكلام . قال علماء البديع كلما كثر عددها كانت أبلغ . فمن مقابلة خمسة قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه لعثمان بن عفان رضى الله عنهما :(إنَّ الحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِى ، والبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِى ، وأنتَ رَجُلٌ إنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ ، وإنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ.)

وأوردوا لأبى الطيب خَمْسَةً بخمسةٍ :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِى وَأَنْثَنِى وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى

قال صاحب الإيضاح : ضِدُّ الليلِ المَحْضِ هوالنَّهَارُ لا الصُّبْحُ والمقابلة الخامسة بين(لى لى فيها نظر لأن الباء واللام صلتا الفعلين.

ورجح بيت أبى دلامة المتقدم على بيت أبى الطيب بجودة المقابلة ولكن القافية مستدعاة فإن ذكره مختص بالرجل وبغيره والمعنى قد تم بدون الرجل .

قال زكى الدين بن أبى الأصبع : لوكان لما اضطر إلى القافية أفاد بها معنى زائد بحيث يقول بالبشر لكان البيت نادرا . وعلى كل تقدير بيتُ أبى دُلامة أفضل مِنْ بيت المتنبى لصحة المقابلة بالأضداد أفضل وهوالسكاكى فإنه قال : المقابلة : أن تجمع بين شيئين متوافقين فأكثر ثم إذا شرطت هنا ضده .

وبين المتنبى أفضل بالكثرة عند غير السكاكى وأن المقابلة عنده لا تصح إلا بالأضداد .